شرح الأربعين النووية

الحديث الحادي والعشرون

قُلْ آمَنْتُ باللهِ ثُمَّ استَقِمْ

اللقاء الرابع والعشرون

الحديث الحادي والعشرون:

عَنِ أَبيْ عَمْرٍو، وَقِيْلَ، أَبيْ عمْرَةَ سُفْيَانَ بنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُوْلَ اللهِ قُلْ لِيْ فِي الإِسْلامِ قَوْلاً لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدَاً غَيْرَكَ؟ قَالَ: "قُلْ آمَنْتُ باللهِ ثُمَّ استَقِمْ" رواه مسلم

ترجمة الراوي:

سفيان بن عبد الله بن أبي ربيعة بن مالك الثقفي الطائفي، له صحبة ورواية، وكان عاملًا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه على الطائف، استعمله إذ عزل عثمان بن أبي العاص عنها، ونقل عثمان إلى البحرين، روى عنه أبناؤه عاصم وعبد الله وعلقمة وعمرو وأبو الحكم، وابن ابنه محمد، ومروياته خمسة أحاديث.

منزلة الحديث:

هذا الحديث موقعه عظيم، وهو من بديع جوامع كلمه -ﷺ-؛ فإنه جمع لهذا السائل في هاتين الجملتين جميع معاني الإسلام [الجواهر اللؤلؤية شرح الأربعين النووية].

قال الأُبِّي رحمه الله: كان من جوامعه؛ لأنه أجمل فيه ما فصله في ثلاث وعشرين سنة.

قال القاضي عياض رحمه الله: هذا من جوامع كلمه -ﷺ-، وهو مطابق لقوله تعالى:﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾[فصلت: 30].

قال المناوي رحمه الله: وهذا من بدائع جوامع الكلم؛ فقد جمعتا جميع معاني الإيمان والإسلام؛ اعتقادًا، وقولًا، وعملًا.

قال ابن دقيق العيد رحمه الله: هذا من جوامع الكلم التي أوتيها النبي -ﷺ-؛ فإنه جمع لهذا السائل في هاتين الكلمتين معاني الإسلام والإيمان كلها؛ فإنه أمره أن يجدد إيمانه بلسانه، متذكرًا بقلبه، وأمره أن يستقيم على أعمال الطاعات، والانتهاء عن جميع المخالفات.

شرح الحديث:

❁((قُلْ لِيْ فِي الإِسْلامِ)): أي في الشريعة.

❁((قَوْلاً))؛ قال ابن عثيمين: قولاً يكون حداً فاصلاً جامعاً مانعاً.

أي: جامعًا لمعاني الإسلام، واضحًا في نفسه، بحيث لا يحتاج إلى تفسير غيرك، أعمل به، وأكتفي به، بحيث ❁((لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدَاً غَيْرَكَ))؛ أي: كافيًا حتى لا يحتاج بعده إلى غيره.

❁((قُلْ آمَنْتُ باللهِ))؛ أي: جدِّد إيمانك بالله؛ ذكرًا بقلبك، ونطقًا بلسانك، بأن تستحضر جميع معاني الإيمان الشرعي، قال النووي رحمه الله: أي كما أمرت ونهيت.

"قُل آمَنْتُ": قال ابن عثيمين: يشمل قول اللسان وقول القلب. قال أهل العلم: قول القلب: هو إقراره واعترافه. "آمَنْتُ بِاللهِ" أي أقررت به على حسب ما يجب علي من الإيمان بوحدانيته في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

قال ابن عثيمين: فأعطاه النبي -ﷺ- كلمتين: "آمَنْتُ بِاللهِ" محل الإيمان القلب "ثُمَّ استَقِم" وهذا في عمل الجوارح.

((ثُمَّ استَقِمْ))؛ أي: الزَمْ عمل الطاعات، والانتهاء عن المخالفات، قال النووي: الاستقامة ملازمة الطريق؛ بفعل الواجبات، وترك المنهيات؛ قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: 112]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ...﴾ [فصلت: 30].

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ -رضي الله عنه-: لَمْ يُشْرِكُوا باللهِ شَيئًا، ولَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى إِلَهٍ غَيرِهِ، ثُمَّ اسْتَقَامُوا عَلَى أَنَّ اللهَ رَبَّهُم.

وَيَقُولُ الحَسَنُ البَصْرِيُّ -رحمه الله-: اسْتَقَامُوا عَلَى أَمْرِ اللهِ، فَعَمِلُوا بِطَاعَتِهِ واجْتَنَبُوا مَعْصِيَتَهُ.

وَيَقُولُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ -رضي الله عنه-: الاسْتِقَامَةُ أَنْ تَسْتَقِيمَ عَلَى الأَمْرِ والنَّهْيِ، وَلاَ تَرُوغَ رَوَغَانَ الثَّعْلَبِ. يُرِيدُ بِذَلِكَ أَنَّ المُسْتَقِيمِينَ يَلْتَزِمُونَ بالاسْتِقَامَةِ دَائِمًا في جَمِيعِ أَحْوَالِهِم وَأَوقَاتِهِم وَلَيسَ وَقْتًا دُونَ وَقْتٍ.

قال ابن رجب رحمه الله بقوله: "الاستقامة: هي سلوك الطريق المستقيم، وهو الدِّين القويم من غير تعويج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها؛ الظاهرة والباطنة، وترك المنهيَّات كلها كذلك".

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: فهذا الرجل طلب من النبي -ﷺ- كلامًا جامعًا للخير، نافعًا موصلًا صاحبه إلى الفلاح، فأمره النبي -ﷺ-بالإيمان بالله، الذي يشمل ما يجب

اعتقاده من عقائد الإيمان وأصوله، وما يتبع ذلك من أعمال القلوب، والانقياد والاستسلام لله باطنًا وظاهرًا، ثم الدوام على ذلك، والاستقامة عليه حتى الممات.

وقال: وقد دلت نصوص الكتاب والسنة الكثيرة على أن الإيمان يشمل ما في القلوب من العقائد الصحيحة، وأعمال القلوب؛ من الرغبة في الخير، والرهبة عن الشر، وإرادة الخير، وكراهية الشر، ومن أعمال الجوارح، ولا يتم ذلك إلا بالثبات عليه.

قال ابن عثيمين: هاتان الكلمتان جمعتا الدين كله. فلننظر: الإيمان بالله يتضمن الإخلاص له في العبادة، والاستقامة تتضمن التمشي على شريعته عزّ وجل، فيكون جامعاً لشرطي العبادة وهما: الإخلاص والمتابعة.

الاسْتِقَامَةُ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ، تَأْخُذُ بِمَجَامِعِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَتَتَحَقَّقُ بِهَا مَعَالِي الأُمُورِ، وَأَعْلَى الدَّرَجَاتِ وَالأُجُورِ، وَبِهَا يَكْمُلُ الإِيمَانُ، وَيُضْمَنُ الأَمْنُ يَومَ البَعْثِ والنُّشُورِ، وَتَعُمُّ الخَيرَاتُ وَالبَرَكَاتُ، ويَسْعَدُ الأَفْرَادُ وَالمُجْتَمَعَاتُ، إِنَّهَا خَصْلَةٌ مِنْ أَعْظَمِ خِصَالِ السَّائِرِينَ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَأَجَلِّ مَدَارِجِ السَّالِكِينَ بَينَ مَنَازِلِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، يَنَالُ المَرْءُ بِهَا الكَرَامَاتِ، ويَصِلُ إِلَى أَعْلَى المَقَامَاتِ، وَيَعِيشُ بَرْدَ اليَقِينِ، وَيَحُوزُ عَلَى مَرْضَاةِ رَبِّ العَالَمِينَ.

إِنَّهَا اتِّبَاعُ الدِّينِ القَوِيمِ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وَاجْتِنَابِ المُحَرَّمَاتِ، ولُزُومُ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ بِرِعَايَةِ حَدِّ الوَسَطِ في كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الحيَاةِ، وَالقِيَامُ بَينَ يَدَي اللهِ بِمَا أَمَرَ، والاَلتِزَامُ بالصِّدْقِ في القَولِ والعَمَلِ، وَالوَفَاءُ بِكُلِّ المَوَاثِيقِ والعُهُودِ، فَالإِسْلاَمُ إِيمَانٌ باللهِ وَحْدَهُ دُونَ سِوَاهُ، ثُمَّ اسْتِقَامَةٌ عَلَى مَنْهَجِ اللهِ وشَرْعِهِ مِنْ غَيرِ تَغْيِيرٍ أَو تَبْدِيلٍ أَو تَقْصِيرٍ؛ قال سُبْحَانَهُ: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوفٌ عَلَيهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الأحقاف:13-14].

وفي قوله -ﷺ-: «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثم اسْتَقِمْ»، يضع الرسول -ﷺ- منهجا متكاملا للمؤمنين ، وتتضح معالم هذا المنهج ببيان قاعدته التي يرتكز عليها ، وهي الإيمان بالله : (قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ) ، فهذا هو العنصر الذي يغير من سلوك الشخص وأهدافه وتطلعاته ، وبه يحيا القلب ويولد ولادة جديدة تهيئه لتقبل أحكام الله وتشريعاته ، ويقذف الله في روحه من أنوار هدايته ، فيعيش آمنا مطمئنا ، ناعما بالراحة والسعادة ، قال الله تعالى مبينا حال المؤمن :(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ ...)[الأنعام : 122]، فبعد أن كان خاوي الروح ، ميّت القلب ، دنيوي النظرة ، إذا بالنور الإيماني يملأ جنبات روحه ، فيشرق منها القلب ، وتسمو بها الروح ، ويعرف بها المرء حقيقة الإيمان ومذاقه.

فإذا ذاق الإنسان حلاوة الإيمان، وتمكنت جذوره في قلبه، استطاع أن يثبت على الحق، ويواصل المسير، حتى يلقى ربّه وهو راض عنه، ثم إن ذلك الإيمان يثمر له العمل الصالح ، فلا إيمان بلا عمل ، كما أنه لا ثمرة بلا شجر، « قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ » فرتّب الاستقامة

على الإيمان، فالاستقامة ثمرة ضرورية للإيمان الصادق، وبالاستقامة يحافظ العبد على الفطرة التي فطره الله عليها، فلا يحجب نورها بالمعاصي والشهوات، مستمسكا بحبل الله، جماع الخير في الاستقامة، وهي طريق النجاة.

فلما كان شأن الاستقامة عظيمًا وعزيزاً، أرشد إليها النبي -ﷺ- بعد الإيمان؛ فمن الناس من يأتي بالإيمان اعتقادًا وقولًا وعملًا، لكنه يعوجُّ في طريقه، ويقصر في عمله، والاستقامة تكون في النيات والأقوال والأعمال:

فمن زعم أنه استقام على شرع الله تعالى، وظاهره يخالف ذلك، وتراه ربما يشير إلى صدره ويقول: (التقوى ها هنا) فزعمُه باطل، ودعواه كاذبة؛ فاستقامة القلب تنقاد إليها الجوارح، فهي امتحانه ودليله، وكما قال الشاعر:

إن ما تدعيه حقًّا كذبته شواهد الامتحان

كلُّ مَن يدَّعي بما ليس فيه كذَّبته شواهدُ الامتحان

وكذا من استقام ظاهره ولم يستقِمْ قلبه، فاستقامته مخرومة، فليست هي الاستقامة التي يريدها الله تعالى؛ فمن عمر قلبه بفتن الشهوات وساء عملُه، حمل قلبًا مسودًّا، أو قلبًا قليل التعلق بربه، فأنَّى لقلبه استقامة؟

وغالبًا ما يُظهِر ما في القلب اللسانُ، فتجده معبِّرًا عما فيه، فمن ساء قوله، فكان كذابًا، أو مغتابًا، أو نمَّامًا، أو فاحشًا بذيئًا، ونحو ذلك من آفات اللسان؟ ولذا، فإن الاستقامة تكون بالقلب واللسان والجوارح.

يقول ابن القيم – رحمه الله –: "والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال، والأحوال والنيات؛ فالاستقامة فيها وقوعها لله وبالله، وعلى أمر الله، قال بعضهم: كن صاحب الاستقامة، لا طالب الكرامة؛ فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطالبك بالاستقامة؛ فالاستقامة للحال بمنزلة الروح من البدن، فكما أن البدن إذا خلا عن الروح فهو ميت، فكذلك إذا خلا عن الاستقامة فهو فاسد... وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة"؛ [انظر: مدارج السالكين (103/2)، وانظر تهذيبه ص (529)].

ويقول ابن رجب رحمه الله: "أصل الاستقامة استقامة القلب على التوحيد... فمتى استقام القلب على معرفة الله وعلى خشيته وإجلاله ومهابته ومحبته وإرادته ورجائه ودعائه والتوكل عليه والإعراض عما سواه – استقامت الجوارح كلها على طاعته؛ فإن القلب هو ملك الأعضاء، وهي جنوده، فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه، وأعظم ما يراعى استقامته بعد القلب من الجوارح اللسانُ؛ فإنه ترجمان القلب، والمعبر عنه"؛ [انظر: جامع العلوم والحكم (193) بتصرف يسير].

قال-ﷺ-: "لا يَسْتَقِيمُ إيمانُ عبدٍ حتى يَسْتَقِيمَ قلبُهُ، ولا يَسْتَقِيمُ قلبُهُ حتى يَسْتَقِيمَ لسانُهُ"صحيح الترغيب

✉ومَعْنَى استقامةِ القلْبِ: أنْ يكونَ مُمْتلِئًا بمَعرفةِ اللهِ ومَحبَّتِه، ومَحبَّةِ طاعتِه، وكراهةِ مَعصيَتِه، وعَظَمتِه، وخَشيَتِه، ومَهابَتِه، ورَجائِه، والتَّوكُّلِ عليه، وهذا هو حَقيقةُ التَّوحيدِ، "ولا يَستقيمُ قلْبُه حتَّى يَستقيمَ لِسانُه"؛ فاللِّسانُ والقلْبُ مُرتبطانِ، واللِّسانُ تَرْجُمانٌ لِمَا في القلْبِ، وهو الَّذي يُعبِّرُ عمَّا يَعقِدُ عليه مِن الإيمانِ أو الكُفرِ، فيَجُرُّ صاحِبَه إمَّا إلى جنَّةٍ، وإمَّا إلى نارٍ. الدرر السنية

📋قال يحيى بن معاذ: القلوبُ كالقُدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها، فانظر إلى الرّجل حين يتكلم فإنّ لسانه يغترف لك مما في قلبه؛ حلوٌ وحامض ...! وعذبٌ وأُجاجٌ ...! وغير ذلك.

قَالَ رَسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ فَإِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا". صحيح الترمذي

✉اللِّسانُ يُترجِمُ عمَّا في القَلبِ ويُعبِّرُ عنه، ونُطْقُه له تَأثيرٌ في بقيَّةِ أعضاءِ الجسَدِ، وهذا التأثيرُ يكونُ بالخيرِ إذا كان الكلامُ ممَّا يُنتفعُ به؛ مِن ذِكرٍ للهِ، أو أمرٍ بمعروفٍ أو نهي عن مُنكَرٍ، ويكونُ التأثيرُ بالشَّرِّ إذا كان نطقُه فيه إثمٌ؛ مِن كَذِبٍ ونميمةٍ وغِيبةٍ. الدرر السنية

📋قال الغزالي: المعنى فيه أن نطق اللسان يؤثر في أعضاء الإنسان بالتوفيق والخذلان فاللسان أشد الأعضاء جماحاً وطغياناً وأكثرها فساداً وعدواناً ويؤكد هذا المعنى قول مالك بن دينار رحمه إذا رأيت قساوة في قلبك ووهناً في بدنك وحرماناً في رزقك فاعلم أنك تكلمت فيما لا يعنيك.

✉فكل من يتساهل في الكلام عن الناس، والنيل منهم، والخوض في أعراضهم والإساء لهم، مائل عن الاستقامة، حائد عن الطريق القويم، زائغ القلب يخشى عليه من الطبع والران والانتكاس.

⇦فيا ألله، كم تحتاج قلوبنا وألسنتنا وجوارحنا من مراجعة في استقامتها؟

ورَوَى عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه- قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ -ﷺ- خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: "هَذَا سَبِيلُ اللهِ"، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: "هَذِهِ سُبُلٌ (مُتَفَرِّقَةٌ) عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيطَانٌ يَدْعُو إِلَيهِ"، ثُمَّ قَرَأَ (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [الأنعام:153]. رواه أحمدُ والدَّارِمِيُّ والحاكِمُ بإسنادٍ صحيحٍ.

✉وَهَذِهِ السُّبُلُ التِي وَصَفَهَا رَسُولُ اللهِ -ﷺ- عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا شَيطَانٌ يَدْعُو إِلَيهِ مِنْ شَيَاطِينِ الجِنِّ وَالإِنْسِ، وَمَا أَكْثَرَهُم في هَذَا الزَّمَانِ! لاَ كَثَّرَهُم اللهُ! الذِين يَدْعُونَ إِلَى مُخَالَفَةِ صِرَاطِ اللهِ المُسْتَقِيمِ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ، ويُزَيِّنُونَ الابْتِعَادَ عَنْهُ بِكُلِّ طَرِيقَةٍ، يَدْعُونَ إِلَى الطُّرُقِ المُنْحَرِفَةِ، والسُّبُلِ المُلْتَوِيَةِ؛ وَهَؤُلاَءِ كُلُّهُم دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُم قَذَفُوهُ فِيهَا، وَالنَّارُ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَمَا أَكْثَرَ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُم مِنْ ضِعَافِ الإِيمَانِ!

لَكِنَّ المُسْلِمَ المُسْتَقِيمَ عَلَى أَمْرِ اللهِ تَعَالَى لاَ يَأْبَهُ بِهِم، ولاَ يَرْكَنُ إِلَيهِم، وَلاَ يَسْتَجِيبُ لَهُمْ، بَلْ يَتَّبِعُ أَمْرَ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَيُحَكِّمُهُمَا فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ، وَيَتَمَسَّكُ بكِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ -ﷺ-، وَيَعَضُّ عَلَيهِما بالنَّوَاجِذِ في زَمَنِ الشَّهَوَاتِ والشُّبُهَاتِ، فَيَصْلُحُ حِينَ يَفْسدُ النَّاسُ، ويُصْلِحُ مَا أَفْسَدَ الناسُ، ويَقْبِضُ عَلَى الجَمْرِ حِينَ يَتَذَرَّعُ النَّاسُ بالشَّهَوَاتِ والمُغْرِيَاتِ؛ حِينَهَا تَعْظُمُ الاسْتِقَامَةُ أَجْرًا وتَسْمُو قَدْرًا.

وَقَدْ صَحَّ عِنْدَ التِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بن مَالِكٍ -رضي الله عنه- أَنَّ النبيَّ -ﷺ- قَالَ: "يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ".

ليس مفهوم الاستقامة عدم الوقوع في الذنب: بل لا بد من الذنب؛ ففي حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا: ((كلُّ ابنِ آدم خطَّاء، وخير الخطائين التوَّابون))؛ رواه أحمد والترمذي.

والله عز وجل أمَر مع الاستقامة بالاستغفار من الذنب؛ مما يدل على أن الاستقامة قد يقع فيها خلل، وهذا أمر وارد، ويجبر بالاستغفار؛ قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: 6].

وفي قوله تعالى:(فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ) [فصلت: 6]، إشارةٌ إلى أنَّه لابُدَّ من تقصيرٍ في الاستقامة المأمور بها، فيُجبَرُ ذلك بالاستغفار المقتضي للتَّوبة والرُّجوع إلى الاستقامة، فهو كقول النَّبيّ -ﷺ- لمعاذ: "اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا" رواه الترمذي

قال ابن القيم: والمطلوب من العبد الاستقامة وهي السداد، فإن لم يقدر عليها فالمقاربة، فإن نزل عنها فالتفريط والإضاعة؛ كما في صحيح مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبي -ﷺ- قَالَ: "قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْتَ؟ قَالَ: "وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ"

وفي رواية البخاري "سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا" وفي سنن أبي داود يقول -ﷺ-:"أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ لَنْ تُطِيقُوا أَوْ لَنْ تَفْعَلُوا كُلَّ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ سَدِّدُوا وَأَبْشِرُوا".

إِنَّ الاسْتِقَامَةَ عَلَى دِينِ اللهِ تَعَالَى ثَبَاتٌ وانْتِصَارٌ وفوزٌ في مَعْرَكَةِ الطَّاعَاتِ وَالأَهْوَاءِ وَالرَّغَبَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، وَلِذَلِكَ اسْتَحَقَّ الذِينَ اسْتَقَامُوا أَنْ تَتَنَزَّلَ عَلَيهِم المَلاَئِكَةُ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ لِتَطْرُدَ عَنْهُمُ الخَوفَ والحَزَنَ، وَتُبَشِّرَهُم بالجَنَّةِ، وَيُعْلِنُوا وُقُوفَهُم إِلَى جَانِبِهِم في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيهِمْ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَولِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ) [فصلت:30-32].

من ثمرات الاستقامة:

1- تنزل الملائكة على أهل الاستقامة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [فصلت: 30]؛ فالملائكة تتنزل عليهم بالسرور والحبور والبشرى في مواطن عصيبة، قال وكيع: "البشرى في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث"؛ [انظر: تفسير القرطبي عند هذه الآية، وكذا فتح القدير للشوكاني].

2- يظفروا بالطمأنينة والسكينة:

حيث قال تعالى: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: 30]؛ أي: لا تخافوا مما تُقدِمون عليه من أمور الآخرة، ولا تحزنوا على ما فاتكم من أمور الدنيا، وقال عطاء - رحمه الله -: "لا تخافوا ردَّ ثوابكم؛ فإنه مقبول، ولا تحزنوا على ذنوبكم؛ فإني أغفرها لكم"؛ [انظر: المرجعين السابقين].

3- البشرى بالجنة:

فقال تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30]، وهذا هو الهدف الذي ينشده كل مسلم، نسأل الله من واسع فضله.

4- سَعة الرزق في الدنيا:

قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: 16]؛ أي: كثيرًا، والمراد بذلك سعة الرزق، وكما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "أينما كان الماء كان المال"؛ [انظر: تفسير القرطبي على هذه الآية].

5- الانشراح في الصدر والحياة الطيبة:

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97]، ومَن جاء بالاستقامة فقد عمل أحسن العمل؛ فاستحقَّ الحياة الطيبة الهنية.

سبل تحقيق الاستقامة والمحافظة عليها: للاستقامة والثبات عليها عدة مقويات ومغذيات، منها:

1- فعل الطاعات، والاجتهاد فيها، ومجاهدة النفس عليها:

ومن الأصول العقدية في مذهب أهل السنة والجماعة: أن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، والأدلة على هذا الأصل كثيرة مستفيضة، وأهم ما يحافظ عليه العبد الصلوات الخمس، وكذلك بقية الفرائض، ويستزيد من النوافل، ويُكثر منها، وفي الحديث القدسي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعًا: قال الله عز وجل: ((وما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها، وإنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ))؛ رواه البخاري.

فيحفظ الله عز وجل جوارحه، فلا يصدر منها إلا ما يرضيه سبحانه، وبهذا يكون حقَّق الاستقامة.

2- الاشتغال بالعلم الشرعي وطلبه:

قال ابن القيم – رحمه الله –: "به يُعرَف الله ويُعبَد، ويذكر ويوحد، ويحمد ويمجد، وبه اهتدى إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن بابه دخل القاصرون..."؛ [انظر: تهذيب مدارج السالكين (484)].

3- الإخلاص في العلم والعمل:

فلا بد من مجاهدة النفس على الإخلاص؛ فهو رُوح كل عبادة، وبه تستقيم النفس، وتصدق مع الله في الأقوال والأعمال؛ قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: 30].

4- الدعاء:

من مقوِّيات الإيمان: دعاءُ الله تعالى تحقيقَ الاستقامة والثبات عليها، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل ربه الثبات على الدين، وقد أمرنا بقراءة الفاتحة في كل ركعة، وفيها نسأل الله تعالى فنقول:﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: 6، 7]، فندعو الله تعالى؛ لأن الاستقامة والثبات عليها بيد الله تعالى؛ حيث قال: ﴿ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: 39].

قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم ((يا عليُّ! سَلِ اللهَ الهُدى، والسَّدادَ، واذكرْ بالهدى هدايتَك الطريقَ، وبالسَّدادِ تسديدَك السَّهمَ))

اللَّهمَّ اهْدِني، أي: إلى مَصالِحِ أَمْري أو ثَبِّتْني عَلى الهِدايَةِ إلى الصِّراطِ المُستَقيمِ، وسَدِّدْني، أي: اجْعَلْني عَلى السَّدادِ وهُوَ حَقِيقَةُ الاسْتِقَامَةِ، وهُوَ الإِصَابَةُ في جَمِيعِ الأَقْوَالِ والأَعْمَالِ والمَقَاصِدِ؛ أي: وَفِّقْني وَاجْعَلْني مُصيبًا في جَميعِ أُموري مُستقيمًا.

5- الإكثار من قراءة القرآن:

ومحاولة حفظه أو ما تيسر منه، وكذلك تدبره والعمل به من أهم الأمور في تحقيق الاستقامة؛ فقد جعله الله تعالى سبيلاً لِمَن أراد الاستقامة، فقال: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ [التكوير: 27، 28]، وقال: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: 9]، وعلى العبد ألا يترك ملازمة القرآن، سواء من حفظه أو من تلاوته ، فمع تدبُّره ينال العبد نصيبًا من زيادة الإيمان الذي هو سبب كلِّ استقامة.

6- الصحبة الصالحة:

لأن صحبة البطَّالين وأهل المعاصي تُضعف الاستقامة، تأمل كيف أن الله تعالى بعد أن أمر بالاستقامة حذَّر من الركون إلى أهل المعاصي؛ لأن هذا يؤثر على الاستقامة، فقال تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ [هود: 112، 113].

✿قال أهلُ العلم: أي: لا تميلوا إلى العصاة.

7- التوسط والاعتدال:

لا إفراط وغلو وتشديد؛ فإن النبي -ﷺ- قال: ((لن يشادَّ الدِّين أحدٌ إلا غلبه))؛ متفق عليه من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه، -ﷺ-: ((هلَك المُتنطِّعون))؛ أي: المتشددون، قالها ثلاثًا، والحديث رواه مسلم من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه، وقال -ﷺ-: ((اكْلُفوا مِن الأعمالِ ما تُطيقونَ))؛ رواه البخاري، وأيضًا لا تفريط، باتباع الرُّخص والهوى في الفتاوى ونحوها، ولكن الوسط في ذلك، وهو اتباع سنة النبي -ﷺ-.

وهناك مقويات أخرى للإيمان؛ كالإكثار من ذكر الله تعالى، وذكر الموت، والحرص على سلامة القلب، ومجاهدة النفس والهوى والشيطان بالابتعاد عن الفتن ومواطن الغفلة، والخوف والحذر من سوء الخاتمة، وتجديد التوبة والإنابة لله تعالى.

من معوقات الاستقامة:

فكما أن للاستقامة مغذيات ومقويات، فإن لها معوقات؛ فإن عكس ما تقدم من المغذيات يكون معوقات للاستقامة؛ فإهمال الطاعات والتقلل منها، وترك مجالس العلم والذِّكْر، وعدم مجاهدة النفس على الإخلاص، وترك الدعاء وقراءة القرآن، ومصاحبة أهل المعاصي، وتتبع الرُّخَص أو الغلو في الدِّين، وكذلك التعرض للفتن والشهوات وأماكن الغفلات - كل هذه وغيرها مما يضعف الاستقامة، ويضاف إليها أيضًا:

1- الاستهانة بالمعصية:

فإذا كان العبد ممن يستهين بالمعاصي، وفي الخلوات مع الشهوات، كان ذلك سببًا في مرض قلبه، وبُعده عن ربه، وفي مسند الإمام أحمد قال النبي -ﷺ-: ((إياكم ومحقَّراتِ الذنوب؛ فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يُهلِكْنَه))؛ [انظر: صحيح الجامع (2687)].

2- الانشغال بالدنيا عن الآخرة:

قال النبي -ﷺ-: ((فَوَاللَّهِ ما الفَقْرَ أخْشَى علَيْكُم، ولَكِنِّي أخْشَى أنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كما بُسِطَتْ علَى مَن كانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كما تَنَافَسُوهَا، وتُهْلِكَكُمْ كما أهْلَكَتْهُمْ))؛ متفق عليه.

وكذلك التوسع في المباحات يُضعف القلب، ويجُرُّ إلى التقصير في الواجبات.

3- الوسط السيئ: فالوسط السيئ، سواء كان في الصحبة، أو الوظيفة، أو الأسرة أو المجتمع بشكل عام، مما يُضعف الاستقامة، وتقدم قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ

النَّارُ﴾ [هود: 113]، أسأل الله أن يرزقنا إيمانًا صادقًا، واستقامة ثابتة على طاعته، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

✉ثُمَّ اعْلَمُوا أَنَّ الاسْتِقَامَةَ مَنْزِلَةٌ شَاقَّةٌ تَحْتَاجُ النَّفْسُ مَعَهَا إِلَى المُرَاقَبَةِ والمُلاَحَظَةِ وَالأَطْرِ عَلَى الحَقِّ والعَدْلِ، والبُعْدِ عَنِ الهَوَى والمُجَاوَزَةِ والطُّغْيَانِ، فَالكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَّنَى عَلَى اللهِ الأَمَانِيَّ.

✉وَمَدَارُ الاسْتِقَامَةِ في الدِّينِ عَلَى أَمْرَينِ عَظِيمَينِ هُمَا: حِفْظُ القَلْبِ وَاللِّسَانِ، فَمَتَى اسْتَقَامَا اسْتَقَامَتْ سَائِرُ الأَعْضَاءِ، وصَلَحَ الإِنْسَانُ في سُلُوكِهِ وحَرَكَاتِهِ وسَكَنَاتِهِ، ومَتَى اعْوَجَّا وَفَسَدَا فَسَدَ الإِنْسَانُ وضَلَّتْ أَعْضَاؤُهُ جَمِيعًا.

✉إِنَّ الاسْتِقَامَةَ عَلَى مَنْهَجِ اللهِ لَيسَتْ أَمْرًا مُحَالاً، وَلاَ أُمْنِيَةً وَادِّعَاءً، وَلاَ رَهْبَانِيَّةً مُبْتَدَعَةً كَمَا يَتَوَهَّمُهُ بَعْضُ النَّاسِ، ولَكِنَّهَا اسْتِقَامَةٌ عَلَى الأَمْرِ بالامْتِثَالِ، وَعَلَى النَّهْيِ بالاجْتِنَابِ.

✉إِنَّ الاسْتِقَامَةَ الحَقَّةَ هِي سُلُوكُ طَرِيقِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ، طَرِيقِ الطَّائِفَةِ المَنْصُورَةِ والفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ، أَهْلِ العَقِيدَةِ الصَّافِيَةِ، والمَنْهَجِ السَّلِيمِ؛ أَتْبَاعِ السُّنَّةِ والدَّلِيلِ، والتَّمَيُّزُ عَنْ أَعْدَاءِ اللهِ، ومُفَارَقَةُ أَهْلِ البَاطِلِ، ومُجَانَبَةُ أَهْلِ الأَهْوَاءِ والبِدَعِ والشَّهَوَاتِ؛ رَوَى التِّرْمِذِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَينِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلاَّ مِلَّةً وَاحِدَةً"، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: "مَا أَنَا عَلَيهِ وَأَصْحَابِي".

📝فَأَصْحَابُ الاسْتِقَامَةِ جَمَعُوا بَينَ أَصْلَي الكَمَالِ في الإِسْلاَمِ: الإِيمَانِ بِاللهِ تَعَالَى، وَالاسْتِقَامَةِ عَلَى ذَلِكَ؛ فَالإِيمَانُ كَمَالٌ في القَلْبِ بِمَعْرِفَةِ الحَقِّ وَالسَّيرِ عَلَيهِ؛ مَعْرِفَةٌ بِمَقَامِ الرُّبُوبِيَّةُ وَالأُلُوهِيَّةِ، مَعْرِفَةٌ باللهِ تَعَالَى رَبًّا حَكِيمًا، وإِلهًا مُدَبِّرًا، مُعَظَّمًا في أَمْرِهِ ونَهْيِهِ، قَدْ عُمِرَتْ قلوبُهُم بِخَوفِهِ ومُرَاقَبَتِهِ، وامْتَلأَتْ نُفُوسُهُمْ خَشْيَةً وإِجْلاَلاً، ومَهَابَةً ومَحَبَّةً، وتَوَكُّلاً ورَجَاءً، وإِنَابَةً ودُعَاءً، أَخْلَصُوا للهِ في القَصْدِ والإِرَادَةِ، ونَبَذُوا الشِّرْكَ كُلَّهُ، وَتَبَرَّؤُوا مِنَ التَّعَلُّقِ بِغَيرِ اللهِ رَبِّهِم، ثُمَّ اسْتَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ، دُونَ تَفْرِيطٍ أَو إِفْرَاطٍ، فَإِذَا تَمَكَّنَ ذَلِكَ مِنَ العَبْدِ ظَهَرَ في سُلُوكِهِ طُمَأْنِينَةٌ في النَّفْسِ، وَرِقَّة في القَلْبِ، وقُرْبٌ مِنَ الرَّبِّ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–.

✉فَاسْتَقِيمُوا عَلَى شَرْعِ اللهِ كَمَا أُمِرْتُمْ، اسْتَقِيمُوا وَلاَ تَطْغَوا، اسْتَقِيمُوا وَلاَ تَتَّبِعُوا سَبِيلَ الذينَ لا يَعْلَمُونَ، ثُمَّ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ وتُوبُوا إِلَيهِ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ.

📝المراجع:

❶شرح حديث: (قل آمنت بالله فاستقم): الشيخ د. عبد الله بن حمود الفريح.

❷حديث (قل آمنت بالله ثم استقم): عبد العال سعد الشليّه.

❸الاستقامة على الطاعة: ناصر بن محمد الغامدي.